

الفصل الرابع

علم النفس (سيكولوجيا)

كان مما لفت نظر الإنسان وأيقظ رأيه واسترعى بحثه ومزّن فكره — كما ذكرنا — هذا العالم الذي تنوعت أشكاله وتغيرت ظواهره، الحافلٌ بمناظره، المحيرٌ بألغازه، الذي بهر العقول بجماله وروائه، وقد كان أول باعث على أن يفكر فيه تفكيراً فلسفياً رغبته في فهمه وإخضاعه لأمره، وما اعتراه من الدهشة التي أخذت بحواسه، لذلك بدأ الإنسان بالفلسفة الطبيعية التي تميل بالمرء إلى حل معميات هذا العالم، وتلا النظر في العالم المادي ما هو أهم للإنسان؛ وهو النظر في نفسه.

أثبت العلم أن الأرض ليست إلا كوكباً صغيراً سياراً يدور في فضاء غير متناهٍ، ومع هذا فالإنسان من قديم الزمان إلى الآن لا يزال يرى نفسه خير موجود في الدنيا، ومهما اقتنع بأن القبة الزرقاء التي تتلألأ بالنجوم لم تخلق من أجله، وأن السيارات غير الأرض مسكونة كأرضه، فلن يعدل على أن يعتقد في نفسه أنه أرقى مخلوق، والسبب في هذا أن ارتقاء عقله جعله يشعر تدريجياً بوجوده وبعلمه — أو بحاجته إلى العلم — وبشعوره ورغباته وأفكاره، وبأن له قدرة على أن يبدي أفكاره، وأن يفضي بها إلى غيره، وعلى الجملة جعله يدرك أنه وحده عالمٌ في عالمٍ.

دعته دواعٍ لأن يعرف فاجتهد في تعرف ما حير عقله، وكانت تلوح منه التفاتة نحو نفسه فيأخذه العجب من تلك القوة التي فيه، بها يتحرك وينطق، بها يريد ويرغب، بها يشعر ويشتهي. قيل: إن سقراط استنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، أي إلى الإنسان،¹ ونعني بذلك أن هذا الفيلسوف اليوناني العظيم أول من بدأ بالتفكير في الإنسان وما يتعلق به، وفضّل ذلك على النظر فيما يحيط به من العالم المادي، وقد نسب إليه أنه أول من قال: «اعرف نفسك»، ولكن الحقيقة أن «طاليس» قالها من قبله، ومن ذلك الوقت والإنسان حيران في تلك الأسئلة التي وردت على لسان الشاب الحزين في

شعر «هيني»، سألتها نفسه في جنح من الليل وقد هدأت الأصوات وهو واقف أمام البحر المحيط الموحش: «ما الإنسان؟ من أين أتى؟ وإلى أين يذهب؟» تلك أسئلة تركت المفكرين في كل العصور حيارى، أيام كان النوع الإنساني في همجيته، وأيام أن ابتداءً يرقى عقله، وأيام أن بلغ في المدنية والنمو العقلي شأواً بعيداً، قال «سوفوكليز» الروائي اليوناني: «ما أكثر العجائب! وأعجبها الإنسان». إن هذه الأسئلة: «ما الإنسان؟ وما منزلته في العالم؟ وما علاقته بالأشياء التي تحيط به؟» هي التي قال فيها هكسلي: «إنها أساس كل ما عداها من الأسئلة، وإنها أحب للإنسان مما سواها». هي التي شغلت الرعوس على اختلاف أنواعها: من ذوات القلانس من قدماء المصريين، إلى حملة العمائم، إلى لابسِي القبعات السود، إلى أرباب الضفائر، إلى ألوف من رعوس تصببت عرقاً من البحث، كلُّ سأل هذه الأسئلة، وكلُّ أجاب واختلفت إجابتهم باختلاف روح العصر الذي كانوا فيه. وتُسمى المباحث التي تتعلق بالنفس أو العقل: علم النفس أو سيكولوجيا؛ من «سيكي» نفس و«لوجوس» علم، وهو يبحث في الإنسان من الجهة الخلقية والعقلية لا من الجهة الجسمية.

ولسنا نتعرض هنا للبحث فيما إذا كان العقل أو النفس شيئاً غير الجسم مستقلاً عنه، أو كانت قوة التفكير التي ميزت الإنسان عن غيره من الحيوان، والتي أخذت في النمو شيئاً فشيئاً برقي النوع الإنساني من حالة البداوة إلى حالة المدنية، تابعة لحالات الإنسان الجسمية؛ فإن رسالة تُولف سواد الناس لا يتسع المجال فيها لهذا البحث؛ وكيفينا هنا أن نذكر أن العلاقة بين العقل والبدن، وإن شئت فقل بين أعضاء البدن الظاهرة والأخرى التي يظهر أنها خفية، كانت موضع اهتمام عظيم في العصور الحديثة أدَّى إلى كثير من النتائج العلمية الهامة، ومن أشهر رجال هذا العلم «هكسلي» و«بخنر» وغيرهما.

إن هذه الرسالة التي لم يكن من غرضها إلا النظر في الفلسفة من جهة تاريخية وعرض مسائلها تتجنب البحث فيما إذا كان النظام العقلي والبدني شيئاً واحداً أو شيئين، وفيما إذا كان العقل قوة غريزية أو مكتسبة، بل ولا تتعرض لما «إذا كان الرقي العقلي للإنسان — كما يقول هكسلي — يشبه السُرْفَة^٢ في تحولها، تنزع عنها جلدها وتتحول إلى فَرَاشَة، وأن العقل الإنساني في أكبر مظاهره ثمرة القوى الطبيعية، وأنه مركب من مواد كما تتركب الشمس والسيارات، أو أن الفكر منبعت عن النفس التي هي شرارة إلهية» كلا، بل ولا تخوض فيما إذا كامن الروح عندما يلفظ النفس الأخير يرد

إلى عالم الأرواح غير المعروف كما يقول رجال الدين، فيرجع الجسم إلى الأرض ويلحق الروح بالله، أو أنه يفنى فناء الجسم ويشتركان في الفناء كما اشتركا في البقاء ويختفي الإنسان كما يختفي النبات؛ تلك كلها مسائلٌ نذكرها ولا نناقشها.

من المحتمل أن يكون الفكر شيئاً روحانياً، وأن يكون مجرد قوة بدنية هي وظيفة المخ المنظم عند الإنسان أكثر منه عند الحيوانات اللبونة،^٢ والذي يهمننا هنا هو أن نذكر أن المخ — على أي حال كان — هو عضو التفكير، وهو يفنى مع مادة الجسم، ويصبح الرأس بعد الموت وقد زال عنه كل ما كان له من حيل ودهاء ومغالطة وسفسطة. وما دامت العلاقة بين الفكر والبدن قائمة، وما دام المخ يؤدي وظائفه، فإننا نعرف، ونفكر، ونريد، ونرغب، ونحس، ونشعر بصدور هذا عنا.

وعلم النفس ينظر في الأعمال التي نعملها والطريق التي نتبعها للوصول إلى ذلك الشعور، ويبحث في حقيقة القوى التي تفعل ذلك؛ أعني قوة المعرفة، وقوة الشعور، وحدود الفكر، ومقدار الثقة بصحة التفكير، ووظائف العقل المختلفة التي بها ندرك ونحكم ونتخيل.

فعلم النفس إذًا يبحث في عمل العقل.

قال الأستاذ «سلي» في كتابه (العقل البشري): «إن أهم ما يقصده هذا العلم أن يشرح ظواهر الشعور الراقى في الإنسان، وهذا الشرح العلمي يقتضي ترتيباً وتبويباً للعوامل المختلفة في الحياة العقلية، وشرحاً لِمَنْشئها وارتقائها، فليس الغرض من هذا العلم أن يصف الظواهر العقلية فقط، بل وأن يتتبع أصلها وتاريخها.»

علم النفس يبحث في قوى الالتفات، والإحساس، والإدراك، وقوة الحافظة، والذاكرة، والإرادة وحريتها، والخيال، والوهم، وفي الشعور والعواطف، وفي اللذة والألم، وفي الشم والذوق.

فهو يبحث في أعمال العقل ليستكشف قوانينه وطرقه التي عنها تصدر الظواهر المتقدمة، كما أنه يبحث في طبيعة العقل وحقيقته وجريه على سَنَنٍ واحد، وروحانيته، وعلاقته بأعضاء الجسم واعتماده عليها، وتبادل الفعل والانفعال بينه وبينها.

قال الأستاذ «هكسلي»: «إن مثل الباحث في النفس «السيكولوجي» مثل المُشْرِح، فكما أن المُشْرِح يفصّل الأعضاء إلى أنسجة، والأنسجة إلى خلايا، فكذلك السيكولوجي يرجع الظواهر العقلية إلى حالات الشعور الأولية.» فالعالم في وظائف الأعضاء يبحث في الطرق التي بها يؤدي البدن وظائفه، وعالم النفس يبحث في قوى العقل، وكما أن العلوم

الطبيعية تبحث في العالم المادي الخارجي بواسطة الحواس، كذلك علم النفس يلاحظ ويبحث بواسطة قوة خاصة تسمى «الحس الباطني».

وعلى الجملة فعلم النفس يبحث الحياة العقلية، قابلة أو فاعلة، وفي الشعور بكل مظاهره، وما يبحث عنه علم النفس من ظواهرَ وحقائقٍ مستمدٌ إما من الشعور وإما من الإدراك بالحس.

إن فكرنا ومعرفتنا وإحساسنا إما نتيجة قوة إدراك باطنية، وإما نتيجة انعكاس ما ندركه من الخارج بواسطة الحواس؛ فنحن تارة نوجه نظرنا إلى عمل ذهننا عندما نعمل أو نفكر أو نحس، وتارة نبحت الظواهر العقلية في غيرنا، فندرس نظراتهم وإشاراتهم وأعمالهم وأقوالهم، ونستنتج ما تدل عليه تلك المظاهر من الفكر والحس قياساً على ما يبدو علينا عندما نفكر مثلهم أو نحس كإحساسهم.

قال الأستاذ سيلي: «إن لدرس ظواهر العقل طريقتين؛ إحداهما: توجيه عنايتنا إلى الأعمال العقلية عند حدوثها في ذهننا، أو عقب ذلك مباشرة، كما ألاحظ نفسي عند الغضب مثلاً فأرى تسلسل الأفكار وتلونها بألوان خاصة، وما ينشأ عن الغضب من تحيز وميل عن الحق، وتسمى هذه الطريقة «ملاحظة الباطن»، والطريقة الأخرى: أن ندرس أعمال العقل في غيرنا بما يظهر عليهم، فنلاحظ الارتباط بين أفكارهم مما نسمع من كلامهم، ونعرف الباعث على أعمالهم، وتسمى هذه الطريقة «ملاحظة الظاهر»؛ لأننا نتوصل إلى معرفة الحقائق العقلية بواسطة الظواهر الخارجية التي تدرك بالحواس من مثل: كلمة تقال، أو صرخة تسمع، أو حركة ترى، أو لون يتغير».

والبحث في علم النفس (سيكولوجيا) سابق على وضع اسم له؛ فإن هذا الاسم لم يستعمل إلا في آخر القرن السادس عشر للميلاد، مع أننا ذكرنا فيما قبل أن «سقراط» أو «طاليس» قال: «اعرف نفسك»، وألف «أرسطو» كتاباً يحتوي ثلاث مقالات عنوانه (في النفس)، بحث فيه في القوى العقلية للإنسان وعدّها عين النفس والحياة.

ثم جاء الفيلسوف الفرنسي رُنيه ديكارت ١٥٩٦-١٦٥٠ فوجه هذا العلم وجهة جديدة، ومما يؤثر عنه أنه أجاب من سأل: «كيف أعرف أنني موجود؟» بقوله المشهور: «إنني أعرف أنني أفكر، وأشعر بتفكيري، فأنا أعرف أنني موجود».

والمنابع التي يستقى منها هذا العلم اثنان كما أسلفنا؛ وهي: ملاحظة أعمال عقله، وما يُجرى من التجارب على غيره. وجاء الفيلسوف الإنجليزي جون لوك ١٦٣٢-١٧٠٤ فألف رسالة في العقل البشري بحث فيها في الإدراك الغريزي بالحس - باطناً كان أو

ظاهرًا — وذهب إلى أن العقل البشري صحيفة بيضاء تدخل إليها التجارب من أبواب الحواس فتترك فيها نقوشًا وأثرًا، فنحن نُحصِّل معارفنا إما بواسطة الحواس وإما بواسطة التأمل.^٤ وفي القرن الماضي بدأ الناس — بعدما استكشف من الحقائق اليقينية — يميلون إلى فصل علم النفس عن الفلسفة وجعله علمًا مستقلًا كعلم وظائف الأعضاء — الفسيولوجيا — إذ كان لا علاقة بينه وبين نظريات ما بعد الطبيعة.

ولما كان علم النفس يبحث في أعمال العقل بحثًا عامًا اجتهد في تعرف القوانين والقواعد التي تهدي الفكر وتعصمه من الخطأ، وأخذ يبحث في النظام الذي يسير عليه الفكر ليصل إلى نتيجة صحيحة؛ فنشأ من ذلك فرع من علم النفس انفصل عنه وسُمِّي بعلم المنطق.

هوامش

(١) يتركب الإنسان من جسم وعقل، والبحث في الإنسان قد يكون في جسمه، وقد يكون في عقله، والأنثروبولوجيا — أو علم الإنسان — يشمل كل الأبحاث المتعلقة بالإنسان، سواء من حيث عقله أو بدنه، وسواء من حيث هو فرد أو نوع، كما يشمل البحث في علاقته بالحيوانات اللبونة.

وكلمة أنثروبولوجيا يونانية الأصل تتركب من «أنثروبوس» ومعناها الإنسان، و«لوجوس» ومعناها علم، فمعنى أنثروبولوجيا علم الإنسان، وهو يبحث في كل ما يتعلق بالإنسان؛ فيبحث في أصله، وتدرجه في الرقي، وكيف انتشر على وجه الأرض. والبحث في جسم الإنسان «الذي هو فرع من الأنثروبولوجيا» تفرع إلى علوم كعلم التشريح والطب، وكلها تسمى عادة (سوماتولوجيا) من «سوما» جسم، و«لوجوس» علم؛ أي علم الجسم، وهو مما يدخل في دائرة العلوم الطبيعية. والبحث في الخصائص المميزة لأنواع الإنسان المختلفة وعلاقة الأجناس البشرية بعضها ببعض يكوّن علمًا خاصًا يسمى «أنثولوجيا» من «أنثوس» شعب، و«لوجوس» علم، فالأنثولوجيا علم الشعوب (المؤلف).

(٢) السرفة: الشرنقة.

(٣) الحيوانات اللبونة هي الفصيلة من الحيوانات التي ترضع أولادها، وهي تكوّن أرقى نوع من الحيوانات الفقرية (المعرب).

(٤) انظر نظرية المعرفة الآتية.